

التأصيل للمشروع الإسلامي: مجموعة محاضرات ألقاها سماحة الإمام الخامنئي؛ قبل 47
سنة في مدينة مشهد، المحاضرة السادسة: البشائر (1)



سلسلة محاضرات ألقاها سماحة الإمام الخامنئي؛ المحاضرة السادسة: البشائر (1)

البشائر (1)

الثلاثاء 7 رمضان المبارك 1394 هجرية 2/7/1353 هجرية شمسية

في أحاديثنا السابقة عن الإيمان توخينا بيان قيمة الإيمان وكيفية الإيمان، ليكون مقدّمة لبحث جادّ
عن فهم الدين ومعرفة الدين.

الموضوعات التي ركزنا عليها في أحاديث الإيمان هي إن الإيمان يجب أن يكون عن وعي وفهم وإدراك، وأن يكون مقرونًا بالعمل، لا أن يكون فكرة مجردة في الذهن، وأن يكون متواصلًا لا مؤقتًا ومصليًا.

وقبل أن نتناول المعارف العقائدية في الإسلام، لابد أن نتناول اليوم باختصار موضوعًا آخر، ونتابعه غدًا بإذن الله تعالى، وهو أن نعرف البشائر التي يزفها الله سبحانه للمؤمنين. ما هو الجزاء الذي أعدّه سبحانه لمن يلتزم بالإيمان وبمستلزمات الإيمان؟ فالإنسان عادة يحب أن يرى ما يناله من ربح في متاجرته، ولذلك يود أن يعرف ما ضمنه الله سبحانه للمؤمنين العاملين من أجر وبشرى. وهذه البشائر لها وقع لذيذ على القلب والعقل، وتزيد من عزم المؤمن وثقته. جمعت الآيات المرتبطة بالإيمان وبالمؤمن وكانت ما يقارب من سبعمائة آية لأرى ما يترتب على الإيمان من عطاء (أقول ذلك لأبين للإخوة والأخوات المتعاملين مع القرآن كيفية البحث في الموضوعات القرآنية).

بحثت في هذه الآيات لأرى بشائر الله سبحانه للمؤمنين العاملين، فوجدتها تقرب من أربعين بشرى وامتيار، وكلها كبيرة ومهمة لإسعاد الإنسان. واحدة منها النعيم الأخرى: (جَنَّاتٌ وَعَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ أَنْهَارٌ) [1] أذكر اليوم بعضها وأترك الباقي لكم لتستخرجوها بأنفسكم من القرآن الكريم.

سأذكر اليوم أحد عشر امتيازًا للمؤمن العامل وجميعها تحقق سعادة الإنسان. انظروا في هذه الامتيازات، هل تحقق سعادة الإنسان إذا لم يتحقق واحد منها؟ ذكرها القرآن باعتبارها بشائر للمؤمن الملتزم. نستنتج من ذلك أن الإيمان المقرون بالعمل يطابق — كما يذكره القرآن — جميع شروط تحقق سعادة الإنسان وتلبية احتياجاته.

يمكن لغير المتديّن أيضًا أن يرى في هذه البشائر ما يحقق سعادته. هذه الامتيازات التي يمنحها القرآن للمؤمن العامل يمكن أن يفهمها الإنسان المادي أيضًا بأنها من مستلزمات سعادة الإنسان، غير أن القرآن الكريم يوجهها خاصة للمؤمنين العاملين.

ما هي احتياجات الإنسان لتحقيق سعادته؟

1- أن يعرف الهدف وساحل النجاة والسعادة، ويعرف إلى أين يتجه ولأي هدف يسعى ويجتهد، أن يعرف

نهايةً طريقه منذ انطلاقه، وأيَّ طريق يسكله ليصل بشكل أسرع إلى هدفه. أليس معرفة كل ذلك من العناصر الأساسية في سعادة الإنسان؟ ليس هنا فرق بين الإنسان الإلهي والإنسان المادي. المادي أيضًا يقرُّ بذلك ويشعر به.

2- أن تزول من أمام عين الإنسان وعقله ظلمات الجهل والغرور والأوهام، وكل ما يحول دون أن يعي الإنسان ويفهم ويدرك الحقائق، وجميع ما تحاول الأنظمة الجائرة أن تغطي به على عقول الناس ومداركهم.

ثمة عوائق و«جُجُب» تحول دون نشاط العقول والأفهام، وتجعل الإنسان سجينًا في الظلمات. وأحد أركان سعادة الإنسان أن ينجو من هذه الظلمات، ومن كل ما يخلق هذه الظلمات، وأن يخرج إلى نور الحقيقة، ويجعل قلبه ساطعًا بنور الفهم والوعي.

3- أن يتخلَّص في مسيرته الطويلة نحو السعادة من الوسواس الداخلية، وهي أفظع وأقوى من الوسواس الخارجية. أحيانًا يواجه الإنسان وسواس خارجية في طريقه تقول له: أنت لا تستطيع أن تقطع هذا الطريق. تجارب التاريخ أثبتت أن مثل هذه المعوقات الخارجية تزيد الإنسان إصرارًا على المواصلة، وترفع من درجة شوقه لأن يصل إلى مبتغاه. أما الوسواس الداخلية فهي المثبطات التي تهزم الإنسان داخليًا. لا تسدُّ الطريق، بل تهدم في وجوده قوة السير والمواصلة، تسلب الإنسان قدرة السعي وبذل الجهد. تقول له من داخله: لماذا تذهب؟ ما فائدة مسيرك؟ لعلك لا تصل. لعل قاطع طريق يواجهك. لعلك تواجه من يفترسك. من الذي سمح لك بالذهاب؟ لا، لا تذهب. وهذه الوسوسة هي أسوأ بكثير من الوسواس الخارجية.

هذه المعوقات الداخلية واجهت أكثر قادة طريق السعادة على مرِّ التاريخ. كان قوم موسى يواجهون نبهم بهذه الوسواس. ويصرحون له بأننا نخشى أن لا تتحقق ما وعدتنا به. والقرآن الكريم يشير إلى أن ظروف الشدة والأزمات أدت ببعض الخواص أن يقولوا: (مَتَى نَمُورُ) [2]؟! حتى الخواص تساورهم هذه الوسواس والمعوقات!

من شروط نيل السعادة أن يتخلَّص الإنسان من هذا الاضطراب الداخلي والقلق النفسي، وأن يكون قادرًا على أن يتغلب على هذه الحالة.

لقد كررت مرارًا ما في «دعاء كميل» [3] من إichاءات تشدُّ العزيمة وتخلَّص الإنسان من هذا الضعف الذي يساور داخل الإنسان. جاء في بعض مقاطعه: «ياربِّ، ياربِّ، ياربِّ، يا ربِّ». قوِّ على خدمتك جوارحي، واشدد

على العزيمة جوانحي». يطلب الإنسان من ربّ العالمين أن يرزقه قوّة التغلب على كل شك و تردد يعوق دون حركته.

4- أن يكون سعيه مثمرًا. أن يحدوه أمل بأن مساعيه ستبلغ الغاية التي يريد. الذين يعانون من اليأس لا يبلغون أهدافهم، ولا يحققون ما يصبون إليه من سعادة، فلا بدّ أن يثق الفرد بأن سعيه سيكون مثمرًا، وأنه يقطع في كل خطوة شوطًا على طريق هدفه. لو كنتَ في صحراء قاحلة وكنت تعرف اتجاه الطريق إلى مقصدك، فإنك ستسير في الطريق بعزم وثبات وسعي حتى ولو تأخّرت عن القافلة.. حتى ولو كنت وحيدًا. أما إذا كنت قد ظلمت الطريق، ولا تعرف اتجاه المسير، فإن خُطاك ستكون رخوة ضعيفة، ذلك لأنك لا تعلم أن مسعاك مثمر. تحتل أنك في خطواتك تبتعد عن الهدف. لذلك فإنك تتجه يمنا ويسرة. إذن أحد شروط سعادة الإنسان أن يؤمن الإنسان بأن سعيه سيكون مثمرًا منتجًا.

5- أن تكون أخطاؤه وزلاته قابلة للعفو والغفران والجبران. فالإنسان في مسيرته يتعرض لأخطاء وزلات. وإذا كان في كل خطأ وزلة قد أصيب بجرح لا يقبل التضميد، وأن تكون أخطاؤه لا تقبل الجبران فإنه يبقى في قلق مستمر، يأس من ماضيه ومتشائم من مستقبله. أما لو علم أن كل ما صدر عنه من خطأ وزلل قابل للجبران حين يعزم على أن يجبر خطأه وأن يكون نادمًا على ما صدر منه، فإنه يزداد نشاطًا وشوقًا وأملاً في تحقيق ما يصبو إليه.

6- أن يكون للإنسان سند مطمئن في المسير. أي أن يعلم بأنه يستطيع أن يطلب من ذلك السند المساعدة في الظروف كلها. تمامًا مثل شخص في حقيبته خارطة شاملة جامعة، يسير في الطريق بثقة واطمئنان، وإذا أخطأ في المسير يستخرج الخارطة فتدله على الطريق الصحيح، يشعر دائماً بأن له مستمسكًا ومستعصمًا يستفيد منه.

7- أن يكون له في مواجهة العدو من النصر وإمداد. وهذا أيضًا من شروط تحقيق السعادة والنجاح. المادي طبعًا لا يؤمن بالله، ولذلك فإننا لا نذكر اسم الله سبحانه مع المادي. لكننا نستطيع أن نقول له: لو أنك في مسعاك المادي وفي نضالك الاجتماعي قد علمت أن قوة ما وراء قوة المادة والطبيعة ستساندك، فإنه لا شك سيطيّر فردًا، وسيردّب بتلك القوة التي تسانده في مواجهة العدوان. المادي لا يؤمن بالله طبعًا، لكن الإنسان الإلهي يثق بوجود تلك القدرة المسيطرة على كل شيء. وهذا الشعور يزيد سرعة الإنسان في حركته نحو سعادته.

8- أن يرى الإنسان بأنه متفوق على صفوف الجبهة المقاتلة. ويرى أن العقابته هي له في هذه المواجهة.

وهذا الشعور أيضًا له التأثير الكبير على أن يطوي الإنسان طريقه بسهولة وسرعة أكثر.

9- أن ينتصر على أعداء مسيرته والصادين له عن بلوغ هدفه.. أن يحقق الانتصار في نهاية المسير. وهذا أيضًا من أهم عناصر سعادة الإنسان.

10- أن يتجاوز العقبات والضغوط والموانع ويبلغ الهدف. ويحقق الفوز والفلاح.

11- ومما له دخل في سعادة الإنسان أن يكون له في طريق وصوله إلى الهدف، وعند الهدف نفسه، عالم مهيبًا يستطيع أن يستثمر بركات أرضه وسمائه وجميع خيراته من غابات ومناجم وجبال و.. وأكثر من ذلك أن تفتح أمامه أبواب مصادر عقله وإدراكه وفهمه وكفاءاته وطاقاته ليستفيد منها.

ثم بعد هذا الاستثمار كله في حياته تبدأ بعد وفاته مرحلة استراحته ومرحلة نيل أجره. الإنسان المادي يتوقع الحصول على نتائج عمله في حياته، ولا يعقد أملاً على ما بعد وفاته. ولو قيل له افترض — وفرض المحال ليس محالاً — أن موتك بداية راحتك. كيف سيتلقى هذا الافتراض؟! تلاحظون أن هذا أكبر أركان السعادة.. أن يرى أنه بعد انتهاء شوط الحياة الدنيوية سينال جزاء مساعيه وينعم بالجنة والرضوان.

هذه هي بعض الشروط اللازمة لتوفر السعادة للإنسان، وهي في المنطق القرآني مقرونة بالإيمان والعمل الصالح.

لنبداً بالآيات القرآنية التي تزفّ هذه البشائر كلها وعشرات غيرها للمؤمنين. تبشر المؤمنين بالهداية، والنور، والسكينة، وتحقيق الهدف. ولو أمعنا النظر في التاريخ لرأينا تحقق هذه السنة الكونية الإلهية على مرّ العصور.

(إِنَّ السَّادِّينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ) [4]

ونعيد التأكيد هنا أن العمل الصالح هو أداء الالتزام الذي يوجب الإيمان على الإنسان، وهذا الإيمان يؤدي بالمؤمنين أن يهتدوا إلى الطريق. بسبب إيمانهم يهتدون إلى الطريق، يهتدون إلى الهدف وإلى السبيل الذي يؤدي بهم إلى الهدف.

تسمعون من يقول حين يرى الهدف بعيداً والإمكانات ضعيفة: هل يمكن أن نصل إلى الهدف المطلوب؟ لو تفحصت في هذا الكلام لرأيت عدم وجود الإيمان بالخطوة الأولى، أو أن يكون ذلك الإيمان غير مقرون

بالعمل. لو آمن الشخص وعمل لانفتحت أمامه الهداية إلى الطريق، وسيقطع الخطوة الثانية. «الطريق نفسه يقول لك كيف تسير» كما يقول العطار النيسابوري[5]. حين يؤمن الإنسان بالهدف ويتبع هذا الإيمان حركة نحو الهدف، فإن الطريق سوف يفتح أمامه.

القادة والرواد وأتباعهم لا يعلمون وهم في الخطوة الأولى ما هي الخطوة العاشرة. أحيانًا أضرب لذلك مثالًا وأقول هب أنك كنت وحيدًا في صحراء، وفي ليلة مظلمة لا يُرى في سماءها قمر ولا نجوم، وليس في يدك سوى شمعة صغيرة، وتريد بهذه الشمعة الصغيرة أن تقطع هذه الصحراء الممتدة. ستقول مع نفسك إن هذه الشمعة سوف لا تضيء لأكثر من عدة أمتار من الطريق، وأنا أمامي عشرة كيلو مترات. هذا كلام مَن° ليست له تجربة في قطع الطريق. المجرّب سيقول له: سرّ هذه الأمتار التي تساعدك فيها إنارة الشمعة. وإذا تيسّر لك بعدها سبيل للمواصلة فواصل، وإلاّ فلا تذهب. اقطع ما استطعت من الطريق بما لديك من إمكانات الإضاءة، وسترى أنك قادر بعدها أن تواصل الطريق إلى نهايته: (يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ° بِإِيمَانِهِمْ°). □ سبحانه سيهديهم بواسطة إيمانهم. الإيمان سيدفع الإنسان لأن يجد السبيل.

وفي موضع آخر يقول سبحانه: (وَإِذْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْوَعْدَ الْحَقَّ وَقَالُوا لَنْ نَجِدَ لَهُمْ نَصْرًا مِنْ رَبِّنَا°) [6]. الإيمان نفسه يؤدي إلى الهداية وإلى تعميق الإيمان في النفوس.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ° وَآتَيْنَاكُمْ نُبُورًا مَّيْمِينًا # فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا° فَسَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ رَحْمَةً مَّهِمَّةً° وَفَضْلًا° وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا) [7] والبرهان والنور هنا بمعنى القرآن الكريم. والمؤمنون بشرط الاعتصام به، أي الاعتصام بدينه ورسالته، ستنالهم الرحمة والهداية نحو الطريق المستقيم.

(وَإِلَّا فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ° إِنَّكَ أَنْتَ الْعَيْنُ السَّامِعَةُ°) [8] فماذا سيحدث إذا لم تصبر لحكم ربك؟ وما هي الأهداف الإلهية في هذا العالم؟ هي العدل، والأمن، وعبودية □، ونمو الإنسان وتكامله، وعمارة الأرض، وعمارة قلب الإنسان، وعمارة الدنيا والآخرة، وسير الموجودات على طريق كمالها. هذا ما يريده □ سبحانه في هذا العالم. يريد زوال الظن والشرك والكفر وانعدام الأمن والتوحش والطغيان. من يجاهد لإقامة ما يريد □ إقامته وإزالة ما يريد زواله فإن الطريق سيتضح أمامه وتزول كل حيرة فيه.

وكذلك هو الأمر في المجالات الحياتية جميعها، في فهم الدين، في المسائل الاجتماعية، والشؤون العالمية .. كل من قطع خطوة على طريق الهدف الإلهي، وجاهد للوصول إلى الهدف فإن الخطوة التالية ستوضح. فإِ تكفّل بهداية هؤلاء المجاهدين في سبيله نحو طريق الكمال.

قلنا إن النور مما يحقق سعادة الإنسان بالمعنى الذي ذكرناه للنور. وإِ وعد المؤمنين بالنور:

(إِ وَلَىُّ السَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالسَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُ هُمْ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [8].

(الولي) أرجح أن أفهم معناه بأنه (الحليف)، فهو أقرب عندي من المعنى الشائع: النصير والراعي والصديق.

ومعنى (إِ وَلَىُّ السَّذِينَ آمَنُوا) أي إنه حليفهم وفي جبهتهم. (يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) أي ينقذهم من ظلمات الجهل، والخرافة، والغرور، والأنظمة المتجبرة المعادية للإنسان، ومن كل ما يعتبر طامورة معتمة لجوهر وعي الإنسان. ويأخذهم إلى (النور).. نور المعرفة والعلم والقيم الإنسانية، وهذا الانتقال من النور إلى الظلمات خاص بالمؤمنين ولا يشمل الكفار الجاحدين وفاقدى الإيمان. لذلك كان المشرك في قلق دائم، وفي اضطراب مستمر، ليس في حياته نور، ولا معرفة حقيقية.

(وَالسَّذِينَ كَفَرُوا) والكافر من جحد العقيدة الدينية، وأعرض بجفاء عن هذه الهدية الإلهية للإنسان، وعن هذه النعمة الربانية. والكافرون من غطّوا على نعمة إِ، وجدوها.

(أَوْلِيَاءُ هُمْ الظَّالِمُونَ) هؤلاء أولياؤهم وحلفاؤهم الطواغيت والمعتدون.

(يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) يبعدهم عن نور المعرفة ويوقعونهم في زنانات الظلمة (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

(يَا أَيُّهَا السَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا إِ ذِكْرًا كَثِيرًا # وَ سَيِّئُوهُ بِكُفْرَةٍ وَ أَصِيًّا # هُوَ السَّذِي يُصَلِّي عَلَيْهِ كُمْ ° وَ مَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ

إِلَى النَّوْرِ) [9] هذه بشارة أخرى من القرآن الكريم. وهذه البشائر كثيرة يتطلب الحديث عنها أيامًا عديدة، استعرضت بعضها اليوم، وسأستعرض عددًا آخر منها في الجلسة القادمة إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين

[1] - الكهف/ 31

[2] - البقرة/ 214

[3] - دعاء رواه كميل بن زياد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، من أدعية كتاب مفاتيح الجنان.

[4] - يونس/ 9

[5] - العطار النيسابوري (ت 618هـ) من كبار رجل العرفان في الأدب الفارسي، صاحب منظومة منطلق الطير، قتل في هجوم المغول. مرقدته في نيسابور من أعمال خراسان.

[6] - التوبة/ 124

[7] - النساء/ 174 - 175

[8] - بقره/ 257

[9] - الأحزاب/ 41 - 43